(جزيرة الألباتروس)

_ شوقي مسلماني.

\\

قطرةً فقطرةً

يصيرُ البحرُ

وقطرةً فقطرةً

يجفُّ.

\\

ألألمُ كثير

والوحلُ كثير.

*

المفاجأة هي أن ينظرَ إلى الأسد فإذا هو جرذ،

أن ينظرَ إلى الحمل فإذا هو ذئب،

أن ينظرَ إلى النسِر فإذا هو دجاجة،

أن ينظرَ إلى وجهٍ شفّاف فإذا هو غليظ،

والمفاجأة هي أنّه لا يزال يتفاجأ.

مقارنة بينه وبين القمر: كلاهما منيرٌ، لطيفٌ وحالم،

بينه وبين النجمة: هي بعيدةٌ وهو بعيد،

بينه وبين البرقِ والرعد: مثلهما هو يشرقطُ ويهدر،

بينه وبين التمساح: معاً يشقِّفانِ الضحيّة،

بينه وبين العقرب: العقربُ يلدغ مثله.

أذهلهُ الشَبَهُ في التقاسيمِ الداخليّة.

*

قلِقٌ، ومن الكلِّ فيه:

وحيد القرن، ابن آوى، أناكوندا، دينغو،

شجرة كينا، شجرة أكاسيا، شجرة نخيل، شجرة أرز،

سمكة فرّيدي أو سرغوس أو موسى أو غمبار أو بلميدة،

أسد البحر، فيل البحر، حصان البحرِ، قنفذ البحر،

نمل اللهب ونملٌ أبيض.

حركةٌ تورِّثُ حركةً وشساعةٌ تورِّثُ شساعة.

جاء من البعيدِ، جاء من القريبِ،

من الحركةِ الظاهرة والحركةِ الباطنة،

من جزيرةٍ في عرضِ البحر يستريحُ فيها طائر الألباتروس،

من أقبيةٍ _ سجونٍ، من عواصف رمليّةٍ تهبُّ،

من زغاريد فرحٍ ينكمش، من عزّةِ النفسِ التي تنكمش،

من كراهيّةٍ في كلّ إتّجاه، من ثقبٍ يتّسع في القلب،

من منفضةٍ طافحةٍ بأعقابِ السجائر،

من لحيةٍ تصل إلى الأرض، من حروبٍ ومجاعات.

أقبلَ مُشرِقاً وأقبلَ معتماً،

بعضُه اختنقَ صوتُه، امّحى أثره،

وها هو منه بعدُ فقط حجر.

بعضُه على مسافةِ ملايين الأميال من الأرض

يصطادُ بقصبةٍ من ضوء تنهيدةً في نهرٍ يابس.

بعضُه عند قمّةِ جبل،

ولكي يطلعَ الفجرُ مطمئنّاً يقفُ شامخاً كتمثال.

وشجرةُ تفّاح سرقتْ تفّاحتَهُ الوحيدة.

شجونٌ يخطّها المطرُ على زجاجِ النافذة.

رأى عواصف، آثارَ أممٍ غابرة، أمماً تئد أمماً،

رأى بنادق، دبّابات، مدافع، صوراخ وفراشات.

رأى من يقول ومن يصمت، من يعتبر ومن لا يعتبر،

من يُحذّر ومن لا يُحذّر.

رأى من يتدبّر ومن يتهوّر والجريءَ الرائي

والمقفلَ الضعيفَ المُحاصَر.

رأى حكماء بعضهم على أتنٍ تتبعُهم أممٌ ولكن قلّما وصلوا.

رأى حكماء بعضُهم فاتح ولكن قلّما انتصروا.

رأى الأرض المظلمة ورأى في السماء قمراً.

**

لا عِلم ولا مَنْ يتعلّمون، لا نهضة ولا مَنْ ينهضون،

مدارس حداثويّة، مدارس ما بعد حداثويّة، وجميعُها لم تستطع

أن تفتحَ نافذةً في مدرسةٍ واحدةٍ خبْطَ عشوائيّة.

هل يروق أن لا يكفّ الدجاجُ عن نقدِنا؟،

هل يروق أن ينكسرَ الموجُ على الصخر

وكلّ قصدِ البحرِ أن يصيبنا بالرذاذ، علّهُ،

كما يقولُ بالهديرِ، أن يزيل بعضَ الأدران عنّا؟،

هل يروق أن تكركرَ العصافيرُ بالزقزقة

والأنهرُ والسواقي بالخريرِ والأشجارُ بالحفيف

والأبقارُ بالخوارِ والأغنامُ بالثغاء والحميرُ بالنهيق

والخيولُ بالصهيل والذئابُ بالعواء والكلابُ بالنباح

والأفاعي بالفحيحِ ضحكاً منّا وعلينا؟،

هل يليق ألاّ تكفّ الضفادعُ عن النقيق

لكي تحرمنا النومَ الهانئَ العميق؟،

هل يليق أن نغدو لقمةً سائغةً يعلكُها الأسد أو الفهدُ

أو النمِر أو الضبع أو إبن آوى أو إبن عرس وكلّ إبن عرص؟،

هل يروق أن تجترَّنا الأبقارُ والجِمالُ والأغنام

وأن تتهامسَ الفراشاتُ مع الزهورِ أنّنا أجلاف وعلوج؟.

وأنا في سبيلي إليكم حظي بي فيل وقال لي بالرنيم:

أيّها الضالّ كيف يموت واحدٌ منكم ولا يشيّعه إلى مثواه الأخير أحد منكم؟،

ألا يوجد في جنسِكم دمّ؟، ألا تسلكون مسلكاً طيّباً؟،

ألا تصنعون صنيعاً طيّباً؟، ألا تشربون فراتاً طيّباً؟،

ألا تقولون كلاماً طيّباً؟، ألا تقلعون عن الخزي والعارِ الذي أنتم فيه؟،

الكبيرُ والصغيرُ والمقمّطُ في السرير،

مِنَ القطبِ الجنوبيّ إلى القطب الشماليّ،

يبلغهم خبرُكُم المشين،

والنارُ تأكلهم قهراً منكم مثلما تأكل النارُ في الهشيرِ أو في الهشيم،

قلْ لقومِكَ الأشرار مثلك إنّي كما نفى أفلاطون

قوماً مِنْ جمهوريّتِه الفاضلة يوماً سأنفيكم مِنْ مملكتي".

وكان في الجوارِ غرابٌ،

ذاته الذي أضرمَ النيرانَ في بيتٍ خشبيٍّ فقيرٍ كان يؤويه،

قال لي بالنعيبِ: "أيّها النكِرة قلْ لأهلِكَ النكرات مثلك

إنّ كلامَ الفيلِ هو فيل الكلام".

لماذا كلّ ذي أنفٍ أو منقارٍ أو خرطوم

يريد أن يدسَّ أنفَه أو منقارَه أو خرطومَه بشؤوننا؟.

مرّة، مثالاً، وبعد كدْحي كدْحَ حميرٍ مجتمعة،

آويتُ مع غيابِ الشمسِ إلى مرقدي

وإذ خفّاشان ضئيلان، حقيران، مِنْ جنسِ الخفافيش مصّاصةِ الدماء،

يهبطان إليّ مِنْ طاقةٍ قريبةٍ من السقف،

ومن فورِهما يجرحان عقباً لي بمباضع لهما ويخدّراني موضعيّاً

ويتداولان على اللّعق مِنْ دمّي وشتمِ أبي وأمّي،

وأحدهما يقول لصاحبه:

"يا لهؤلاء التافهين، لأكرعنّ مِنْ دمِهم ما حييت".

وبعدما امتلأ بطناهُما طارا عبْرَ الطاقة ذاتها إلى شأنهما،

وأنا طوال الوقت لم أحرّك ضدّهما ساكناً،

آملاً بالصبر أن أتعلّم عليهما لغتهما الوطواطيّة،

فافهم عنّا كيف يفكّران وماذا يقولان بنا؟،

واقسم لكم إذا هما رجعا إليّ أنّي سأدوسهما،

سأفعسهما، سأمعسهما، سأهرسهما.

كيف أغارُ لِمَنْ لا يغار لي؟،

كيف أفرح بِمَنْ لا يفرح بي أو لي؟،

وكيف أشتاق للذي لا يشتاق لي؟.

**

نظرَ بإمعانٍ في السماوات العلى،

رأى أراضين، أناساً آخرين، بِحاراً،

جِبالاً، حقولاً، بيوتاً، حروباً، آمالاً، آلاماً،

وحين لم يكن ينظر بإمعان كان يهبط،

الحوادثُ تتكرّر.

لكلِّ زمانٍ عقلٌ أم لكلِّ عقلٍ زمان؟،

لكلِّ مقامٍ مقالٌ أم لكلِّ مقالٍ مقام؟،

لكلِّ حيّزٍ حركةٌ أم لكلِّ حركةٍ حيّز؟،

لكلِّ مسافةٍ حياةٌ أم لكلِّ حياةٍ مسافة؟،

في كلِّ عينٍ دمعةٌ أم عينٌ في كلِّ دمعة؟،

وكلُّ جسمٍ في رحيلٍ أم رحيلٌ في كلِّ جسم؟.

أناسٌ أدمغتُهم علقٌ.

سطوٌ مسلّح تمارسُه أمم.

*

وفي فيلم قرّرَ أن يثأر ممّن أخذوه لحماً ورموه عظماً،

خرجَ إلى بريّة وتثاءبَ وتمطّى واعتبر ذلك تسخيناً وتدريباً كافيين.

كشّرَ مثل كلب دوبرمان، طار في الهواء مثل سوبّرمان،

صاح عندَ سحابةٍ عابرةٍ مثل طرزان حيّ بن يقظان،

رفسَها فشرقطتْ وزمجرتْ، وهبط وهو يرفس كأنّه في مسّ.

وقعتْ لبطةٌ في أبيه، وقعتْ لبطةٌ في أمّه،

وقعتْ لبطةٌ في جدّة له فاستعجلتْ وقضت،

وقعتْ لبطةٌ في حمل لا ناقة له بعدُ في الدنيا ولا جمل،

وقعتْ لبطةٌ في حائطٍ هو كلّ ما تبقّى لعجوز أرملة

بعدَ غارةِ ربطةِ العنقِ، الشوكةِ والسكّين،

هدّتْهُ، فرفعتْ يديها إلى السماء وتمنّتْ لو تأخذ بخناقِ القومِ الظالمين،

ووقعتْ لبطةٌ في بطّيخةٍ انفجرتْ وطارتْ شظاياها

واصطبغتْ حجرانٌ بدمِها الأحمرِ الورديّ.

وكان في الجوار كلب ينبح عليه ويقول له:

" يا حمار الحمير إنّك تؤذي أهلك المقهورين مثلك".

ويتسلّل التعبُ إلى بدنه،

يطلب الراحةَ بظلّ شجرة، تشتدّ شمسُ الظهيرة،

يشرقط وتضيء في رأسِه فكرة،

ينهض، يزفر ويشهق مصدراً صوتاً ولا أنكر،

قولوا هو زمّور خطر،

ينادي على أشباهه في الخُلُقِ ليهبّوا إليه،

وهبّوا إليه مِنْ كلِّ فجٍّ عميق، وجلّهم تيوس وأكباش وثيران.

خطبَ قائلاً: "سلاحُ اللبيط هو سلاحُ العبيط، مثله مثل سلاح العضِّ

الذي يتباهى به زميلنا الكلب الذي يعمل نبّاحاً في الليل وفي النهار

بأَجرٍ لا يساوي عظمة غالباً هي جرداء،

قرّرتُ أن أفني الأعداءَ بالضربةِ القاضية".

وحثّهم أن ينتشروا في البلاد بحثاً عن كلّ جهبذٍ بعلومِ الغازات

التي تمتلئ بها بطونٌ لعملِ قنبلة،

وحثّهم ألاّ يعودوا وهم قرن مِنْ أمام وقرن مِنْ وراء.

صاحَ تيسٌ: "بالأمسِ قطّعَ ساطورٌ منهم ساعوراً منّا، الموت لهم".

وخرجوا ورجعوا بحزمةٍ مِنَ الجهابذة

الذين بعضهم صناعة أجنبيّة وبعضهم صناعة وطنيّة.

قالَ الجهبذُ جحْششْتاين: "إنّما بشرط أن نمحوَ أيضاً العصافيرَ

والفراشاتِ والزهورَ وحفيفَ أوراقِ الشجرِ وحكايات المطرِ".

وفي الختام من هذا الفيلم الرائع في قصّتِه وفي إخراجه
وموسيقاه التصويريّةِ التي أين منها موسيقى فيلم "سايكو"
لمخرجِ أفلامِ الرعب ألفرد هيتشكوك،
خصوصاً في مشهدِ الحمّام الذي يُجهِضُ الحامل البكر
ويصيبُ بالشيبِ رأسَ الوليد،
وحدِّثوا عنِ المونتاج والإنتاج والمؤثّراتِ الصوتيّةِ
وغير ذلك ممّا في صناعةِ السينما المتقدِّمة،
سرعان ما نرى نيراناً في أبنيةٍ معزولة في عمق الرمل،
ونرى الدخان الكثيف على ألوان منها الأسود ومنها الأصفر
ومنها النيلي ومنها الوردي،
ونرى الكاميرا تصوّر مستعجِلةً مختبراً محطّماً،
ونرى أكداس النافقين وبينهم جحشتاين نافقاً،
ثمّ وكأن حركة لتسرع الكاميرا إلى تحت مكتب
فإذْ هو بطلنا كلّ شيء فيه هامد سوى بطنه ينخفض ويرتفع
كأنّما لا يريد أن يهمد قبل أن يهضم بعدُ لقمةً أخيرة،
أو بسببٍ مِنْ قوّةٍ عجيبةٍ غريبةٍ تصرّ أن تظلّ نابضة

في هذا الكونِ العجيبِ الغريب.

*

أكثر الآذان لا ترى، أكثر العيون لا تسمع،

أكثر المسير لا يصل وأكثر النقل بلا عقل.

**

ومرّةً قرّرَ أن يفرَّ،

وهو يوماً لم يقرِّر أن يفرّ،

وهو يوماً أيضاً لم يعمل عملاً في الوقتِ المناسب،

وكأنّ الوقتَ المناسب متواطئ معه أسرعَ وهمسَ للشمس

عن مظالم تُرتَكَب جهاراً نهاراً ولا وازع ولا رادع،

ويسودُ في الأرض ظلُّ القوّةِ الغاشمة،

وتُداسُ بالأقدام كلّ الشعارات عن الحريّةِ والديمقراطيّةِ والعدالة.

الشمسُ صدّقتْ فقد رأتْ. استقرّتْ في كبدِ السماءِ. هبرجتْ وتوهّجتْ،

دلقتْ نيرانَا صوب الارض،

لمحَ ذلك سيّدُه فطار محتمياً بدارته.

هكذا كان الوقتُ المناسب.

انطلقَ كالسهم هارباً لا يعلم إلى أين؟،

لكنّه يعرف أنه يجب الإبتعاد ما أمكن،

حتى يتيقّن أنّه مستحيل على كائن بعدُ أن يلحقه أو يكون يتبعه.

وظلَّ يعدو بخطّ مستقيم والريحُ تعبثُ بشعرِه

حتى بلغَ أرضاً رأى عندها بئر ماء وعرف أنها بئر السباع،

والإسم مُقتبَس من حادث اعتداءِ سبعٍ مستهتِر على حمارٍ للبطل الزير

الذي أسرع وحزّ رقبة كلّ من يقول أنا سبع، قبل أن يمسك بالسبع المستهتِر

ويجعل له رسناً بعدما أشبعه لكْما وركْلاً حتى قال أخيراً مستسلماً:

"أرجوك سامحني أيّها البطل، وأعدك أنّي لن أستهترَ بعدَ اليومِ أبداً".

وامتطاه نحو مضارب العرب وهو يصيح بأعلى صوته:

"هذه هي نهاية من يجني ولو على دابّة عاشت يوماً في حمى العرب".

ولكنّ الحادث هذا انقضى،

والزير سالم مات،

إنّما من يدري أن يكون بعض السباع قد فرّ من تلك المذبحة

ثم بلغَه نبأُ وفاةِ الزير ورجعَ إلى الناحيةِ غير هيّاب ليقتل ويسلب؟.

وفرّتْ قبّرةٌ كانت في عشٍّ قريب، أجفلَ،

ومن دون أن يلتفت طار ذعراً أن يكون أسد متربّصاً ويريد به شرّاً.

وظلّ يعدو حتى مَشارف مسافة هي على امتداد النظر،

جرداء ليس فيها سوى شجرة ترفع قميصها الأخضر

لكفيف يبحث في الخلاء اللانهائيّ عن بصر.

وعندما اقترب رأى عندها كائن هو عين أحد بني جنسه.

اقتربَ أكثر بحذر أكثر واذ أحد بني جنسه هذا مسنّ

ويقتعد حجراً، ويحدّق مستغرقاً بشاشة جهاز لابتوب.

حيّاهُ بالزفير والشهيق الذي هو عين النهيق،

فلربّما هو من الجنِّ الشرّير فيضجّ من النهيق ويفرّ.

لا، لم يضج ولم يفرّ.

زفر مجدّداً وشهق حتى سمعه أخيراً يقول له:

"اقتربْ يا بني، لا تخفْ، لستُ جنيّاً شرّيراً، أنا من جنسِك،

وحسناً أنَك فررت من وجه سيدك الذي طالما ضربك،

وطالما أهانك بأمِّكَ وأبيكَ وعمومِ أهلِكَ،

لكن أكثر ما استنكرته منه أنّه وحده كان يفوز بالأطايب

كالجوز المقشّر واللّوز الأخضر والفريز والموز أبي نقطة،

وبالكاد كان يرمى لكَ الفتات حتى بلغ السيلُ فيكَ الزبى

يوم التهمَ وحده سلّةَ توت ولم يلقّمكَ حبّةَ توتٍ واحدة".

وانتشلَ له دلوَ ماء من تجويف في جذعِ الشجرة

وأعطاه إيّاه ليكسر عطشَه. شرب، وردَّه، والدمع في عينيه،

وقال بتضرّع: "انقذني يا شيخي ولن انسى معروفك ما حييت".

وبإختصار شديد ما عليه مزيد وقف الشيخ وقال:

"إنطلق يا بنيّ غرباً حتى تصل إلى شاطئ بحر أجاج.

اعبره غرباً أيضاً حتى تبلغ ميناء بلاد إسمها جماجم وعظام

ويدلّعونها بإسم آخر تمويهاً هو آنسات ونواعم.

أقصدْ كلّيتَها العسكرية وادرس على أساتذتها ليلاً مقابل العمل لهم نهاراً بالمجّان،

وفي آخر السنةِ الدراسيّةِ سيكون إمتحان وأنتَ وشطارتك:

وسط، جيّد، جيّد جدّاً، أو ممتاز مع مرتبة الشرف،

وبحسب درجتك ستنقلب إلى ذئب أو ضبع أو فهد أو أسد".

وبحركةٍ آليةٍ تعاكَسَ وأشار للمريدِ صوب الشرقِ وقال:

"أو إمضِ يا بنيّ شرقاً، وبعدَ مسيرةٍ غير يسيرةٍ وربما عسيرةٍ

ستشرف على صحراء رمل قلْ ولا الربع الخالي أو الربع الخراب،

اعبرْ فيها وستصل إلى واحة مخرّبة حيث ستسمع منها صوتاً يقول لك:

" تأخّرتَ كثيراً يا أبا صابر".

وفجاة سينبثق أمامك جمل،

اتبعْهُ حتى يبلغ بك بلاداً يُقال إسمها الكتكوتيّة،

ومن فورِكَ التحقْ بكلّيتها العسكريّة،

وأنتَ وشطارتك بعد الحفظِ والحفظِ والحفظ،

فقد تنقلب إلى غزال أو وعل..".

وقبل أن ينهي كلامه وقد انفهمَ قصده ومرامه

قاطعَهُ المريدُ وقال: "بل غرباً يا شيخي، أنا أريد أن أكون آكلاً لا مأكولاً".

ووصلَ الى بلاد جماجم وعظام

والتحقَ بكليّتها العسكريّة واجتهدَ بصبرِ حميرٍ مجتمعة

ونجحَ بدرجة ممتاز مع مرتبة الشرف،

وفي حفلِ التخريج علّقوا على صدره ورقة قالوا مكتوبٌ فيها:

"أنا النابُ والنابُ أنا، أنا الأسدُ الرئبال

قاتلُ الرجال ومسبي النساء والأطفال".

حاولَ ذاتُه أن يقرأ ماذا مكتوب في الورقة.

أعلَموه أنّ المكتوب فيها هو ليس بالحبرِ الأسودِ الصينيّ

بل هو بالحبرِ الأبيضِ السرّيّ".

وهو في مرقدِه ليلاً، متباهياً بحاله وبالعزِّ الذي بات يرفل به،

خطر له سيّده القاسي، الظالم، الجائر، وحدّثَ نفسَه بالإنتقام.

وفجراً حمل كلاكيشَهُ وعبَر البحرَ الأجاج المتلاطم الأمواج بعد أهوال،

وبلغَ راكضاً ناحيةَ شيخه وتمنّى لو لديه وقت ليمرّ عليه

ويشكره على سخاء مشورته ونصحه،

واجتازَ محلّةَ بئرِ السباع حتى هو أخيراً عند مشارفِ موطنِه،

ورأى خصمَه، ويا لحسن حظّه، واقفاً أمامه بكلّ هيئته وينظر إليه بدهشة،

قال له: "حقّكَ أيّها المجرم أن تندهش، فأنا انقلبتُ إلى أسد.

هل تعلم بماذا سأجازيكَ على شرورك وبلاويك؟،

سأثبُ عليكَ، سانيّبك، ساخلّض الأرض منك ومن جميع أمثالك،

ولكنْ ليس طبعاً قبل أن أملأ قلبَكَ بالرعب الذي أنت تستحقّه

فتموت ألفَ مرّة قبل مِيتتِك الأخيرة".

ولم يؤجّل عملَ اليومِ، كما يُقال، إلى الغد.

رفعَ صوتَه بالزئير ولكن ردّدَ الصدى صوتَ النهيق،

ورفع صوتَه مجدّداً بالزئير ليردّد الصدى أيضاً صوت النهيق،

لمس أسنانَه على عجلٍ فلم يصطدم بناب أو بناتئ،

كيف هو أسدٌ لا يُذلّ له جار ولا تنطفئ له نار وليس فيه ناب؟،

كيف هو أسد وعوض أن يزأر ها هو ينهق؟.

وسمع سيّدَه يقول له: "أحلف يا هذا أنّ أنتَ لست غير أنت".

وقفزَ وقبضَ على خناقه وقال وهو يجزّ على أسنانه:

"أيها الأخرق، أيها الأحمق، أيّها الأصفق،

أنا أشقى في العمل وحدي وأنتَ داير على حلِّ شعرك؟،

لأجعلنّك عبرة لمن يعتبر".

وبعدَ فترة قرّر أن يفرّ أيضاً،

وكذلك تواطأ معه الوقتُ المناسبُ مرّة ثانية

وفرّ تحت غطاءٍ من اللهب الآتي من عين الشمسِ المجنونة،

ومرَّ ببئرِ السباع وترحّمَ على الزير،

وبلغَ مشارفَ الخلاء وقصدَ الشجرة،

وكان شيخه تحتها لا يزال مستغرِقاً في جهاز اللابتوب.

وقفَ خلفَه من دون أن يفتح فمَه أو يأتي بأي حركة.

قال له الشيخ من دون أن يلتفت: "حمداً على سلامتك،

كُتبت لكَ النجاة يا بني أيضاً".

والتفتَ ليراه على حالٍ تصعب حتى على القلبِ الحجر.

أحنى رأسه ألماً.

قال المريدُ وهو يكاد يبكي:

"إرفعْ راسَك وأنظرْ إلي،

عملتُ بمشورتِك وماذا النتيجة؟،

عصيٌّ المايسترو سيّدي حفرت أثلاماً في جسمي،

هل حقّاً أنا انقلبتُ إلى أسد؟،

أحلفُ أنّك ولا تراني حتى حماراً،

إلى من ألجأ أنا اذا كان سيّدي ضدّي وشيخي ضدّي؟،

أنا ماذا جنيت وعلى من اعتديت أو افتريت؟،

هل أنا زبد وهو مؤيَّد ولذلك حقّه أن يدوس عليّ بقدميه؟،

لماذا أعنته عليّ يا شيخي؟، لماذا؟، لماذا؟".

وبكى من فؤادٍ جريح وبكى شيخُه تأثّراً

حتى جرتْ من دموعِهما ساقية حفرتْ في الأرض أخدوداً،

وحتى قال الشيخ أخيراً: "لا يا بنيّ أنا لم أعنْه عليك".

ودعاهُ ليقرأَ سطراً على شاشة اللابتوب مكتوب بالخطّ العريض،

وهو من وثيقة جرى تهريبها ليقرأ ما يفكّر به الأعداء،

ولكن سرعان ما هو ذاته قرأ:

"يجب، ومن أيّ سبيل، أن نمنعَ وحدةَ البرابرة".

والتفتَ الشيخُ غرباً ثمّ شرقاً ثمّ غرباً ثمّ شرقاً،

وصاح، فيما السماء تكفهرّ والبرق والرعد يقتربان:

"أيّها المجرمون، إنّها مجزرة، إنّها مجزرة".

*

يا خلفَ الستارةِ ماذا الآن تدبّر؟،

تدبّرُ بركاناً؟، تدبّر زلزالاً؟، تدبّر اصطدام قطارين؟،

تدبّر سقوط طائرة؟، تدبّر انفجار قنبلة؟،

تدبّر رصاصة؟، تدبّر خنجراً؟،

تدبّر سماءً قاسية وأرضاً قاحلة؟.

*

لا بدّ مِن كسلٍ لتطيرَ فراشة،

كنّا هناك وهم رأوا محيطات غابات،

الظَهرُ كان محنيّاً ولا يتكاثر إلاّ بمقدار

محاصَراً بالمخاطرِ من كلِّ جهة.

كنّا هناك وهم رأوا.

انحسرتْ محيطاتُ الغابات. انقضتْ أحقابٌ

بين الصخورِ المسنّنةِ والمغائر.

وبعد كلّ حقبةٍ كانوا يقولون: كنّا في ضلال.

**

حيث تتكاثر مقاصِلُ القروض تُباع بلاد بالجملة والمفرّق.

القِلّةُ تُفسِح للكثرة لتكون ضربة سيفٍ واحدة.

العيون غافلة عن الخطرِ المحدقِ بها.

قفزات تأملُ أكثر ممّا تعمل وتدمّر أكثر ممّا تعمّر؟.

ليس كلّ عين فيها عين، ليس كلُّ وجهٍ فيه وجه،

ليس كلُّ رأسٍ فيه رأس، ليس كلُّ قلبٍ فيه قلب،

ليس كلُّ بيتٍ فيه بيت وليس كلّ وطن فيه وطن.

عبثٌ كلّه عبث. أمكنةٌ عليها الرملُ يتراكم.

رحلةٌ طويلةٌ ومؤسفة.

*

واشتعلتِ الحربُ، واستبسلَ أيّما استبسال،

كانت مهمّتُه أن يشيلَ على ظهرِه أنواعَ المؤنِ والذخائر

إلى خطوطِ النارِ الأماميّةِ، خلل الغاباتِ البكرِ والأوديةِ السحيقةِ

والممرّاتِ الضيّقةِ عندَ أكتافِ الجبالِ الشاهقة،

ويرجع بالمحمومين والجرحى والقتلى.

كافأوه، رقّوه مِنْ شيّالٍ إلى عتّال، ثم، يا له أخرق، إلى حمّال،

لكن في آن يحظى، والحقّ يُقال، بمكتسبات، مثالاً

كان يقتاتُ من قليل مِمّا ينجمُ في الأرض وصارتْ له مائدة

تعجُّ بالأطايب كالقمحِ المشويّ والذرةِ المسلوقة والبطاطا المقليّة.

كان يستحمُّ فيما هو تحت وابلِ المطر أو فيما هو يخوض في نهر

وصار له معاون يحمّمه بالماءِ الدافئ ويعطّره بأجودِ العطورِ الباريسيّة.

كان يشربُ من مياه البرك حيث يكثرُ العلق وصار يشرب مياهاً معدنيّة.

لكن المُحال هو أن يستقرَّ حال على حال، وبالخصوص أنّ الحرب قد طالت،

وما كان عمليّة جراحيّة بسيطة صار عمليّة خطيرة فيها حياة أو موت.

وشحّت الموارد، وكان التقنين آتياً له على كلّ مكتسباته،

وطال أمدُ الحرب أكثر، وساءتْ أخلاقُ الجند أكثر.

رآهم بأمّ عينيه وأبيهما يغيرون على القرى الفقيرة

التي بيوتها أشبه بأعشاشِ العصافير

ويضرمون النيران فيها، ومن يفرّ يُدرز بالرصاص

ومن لا يفرّ يقضي احتراقاً أو اختناقاً،

ورآهم بأمّ عينيه وأبيهما يفتكون بالأسرى ويلقونهم

في الطرقات المقفرة ليكونوا نهباً للجرذان والمناقير والذباب والديدان،

ورآهم كيف، يا ويلهم، يلقون لسمكِ البورونا الجائع

عيونَ شعراء وأدباء وفنّانين ومثقّفين ووطنيّين مناضلين،

ثم لم يعفّوا عنه ذاته. كانوا يأمرونه إذا أرادوه أن يتقدم

قائلين له بإحترام: "أيّها الحمّال إلى الأمام سرْ"،

وصاروا يأمرونه بإستهزاء قائلين له: "حا"،

وكانوا يأمرونه إذا أرادوه أن يقف قائلين له برصانة: "مكانك قفْ"،

وصاروا يأمرونه كازّين على أسنانهم قرفاً قائلين له: "هشّ".

وطلبَ الجنرال جرادشتاين مزيداً

مِنَ القوّات والمعدّات التكتيكيّةِ والإستراتيجيّةِ.

لم يكن هدف الحرب تنصيب الديمقراطية ملكة

أو لكي تنتصر الحضارة على الهمجيّة أو المدنيّة على البربريّة،

كان وضع اليد على ثروات البلاد الطبيعيّة.

وامّحتْ مطارح عن الخارطة وهلك خلق كثير.

وعلى رغم الإنجازات، وكلّها رهيبة، فالمقاومة المحليّة

لم ينكسر ظهرها بل اشتدّ عودُها وتكاثر عديدُها.

كانت كلّما استشهد لها مقاوم نهض مكانه إثنان.

وضغثٌ على إبالة

وقعتْ عينُ حاصود الموت أخيراً على الحمّال،

ولكنّ الحاصود لا يستطيع أن يحصدَ أكثر ممّا يستطيع،

حتى أصابه مسّ وأقسمَ أنّه لن يهدأ له بال ولن يهنأ له حال

حتى يرى الحمّالَ قتيلاً.

كمنَ له تحت حجر عند ممرّ ضيّق في أعالي جبل شاهق.

داسَ الحمّالُ على الحجر وتعثّر ولكن سرعان ما توازن،

ناجياً من السقوط إلى حيث الصخور المسنّنة والموت المحتّم.

أرشد المقاومة إلى حيث هو فقصفتْهُ بالكاتيوشا.

مات جميع من معه إلاّ هو زحف خارج منطقة الإستهداف ونجا.

أخيراً همسَ لذبابة معتمِداً الحربَ النفسيّة لتقومَ وتطنّ عند أذنِ الحمّال

وإلاّ نزع روحَها من قلب قلبِها،

وأوحى للحمّال أنَّ هذا الطنين ليس سوى هدير صاروخ

عابر للقارّات ومزوَّد بمعلومات ألاّ ينفجر

إلاّ وهو داخل رأسِ الحمّالِ داخلاً إليه مِنْ طريق إحدى أذنيه.

وأُصيبَ الحمّال بصعقة، فمرّةً هو ينهق ومرّةً هو ينعق،

ومرّةً هو يضحك ومرّةً هو يبكي، ومرّةً هو ينبح ومرّةً هو يعوي،

ومرّة هو يركض ومرّة هو ينبطح، ولكن أيضاً لم يمت.

أصدرَت المقاومة أخيراً منشوراً تستنكر فيه

أن تكون الديمقراطيّة تعني حقّ الذئب أن يفلت بين الحملان،

وصمّمت على الإستمرار في الكفاح بالسلاح حتى دحر آخرِ فلول الإحتلال.

وبدأتْ قلاعُ الإحتلالِ تتساقط تباعاً،

ولم يبق غير سطح مغارة قيل كانت سفارة،

حطّتْ عليه مروحيّة عسكريّة بسرعةٍ وانهماك

وفرّتْ بما حملتْ على عجل

فيما حبلٌ يتدلّى منها يتعنزق به الحمّال

الذي رجع إلى ديرتِهِ ناجياً بروحِه ولكنْ ليس بكلّ عقلِه.

*

ليس أن تصعد ولكن كيف؟،

وعلى سلّم عظام وجماجم أم

على سلّم موسيقى الحبِّ؟.

*

العينُ تراها العينُ،

والعقلُ يُدركُه العقلُ.

*

غريب يتساءل إذا يوجد غرباء؟.

له رأس وليس له أو فيه أو معه رأس.

*

والمحورُ مائل

والأرضُ تدور.

.2011 - 2010

Shawkimoselmani1957@gmail.com